غذاء عائلى

" من يعطينى شخصا ينصت الى "

فيما مضى كنت صاحب مكتبة ثم أصابنى مرض طويل ابعدنى عن أى نشاط اليوم أنا وكيل المنتجات الدوائية وأكسب من هذا العمل ما يجعلنى اعيش بلا زيادة أذهب وأجىء حاملا حقيبة مليئة بالعينات أبدا لن تهدنى الهموم تماما ففي القلب ربطت زورقا اهرب فيه دائما من كل شىء لاشعر بالحرية من جديد .

تقطن إبنتى وانا مدينه على حافة البحر المتوسط صاخبة مليئة بالحركة لامعة كالؤلؤ بعد أمطار نادرة ولكنها غزيرة تتصادم فيها الاصوات والالوان والأفكار وهذه النغمة المزدوجة تروق لى .

في الصباح الفائت وأنا اتجول مع حقيبتى عكست صورتى واجهه محل المبتكرات لم ينكن أنطوان مخطئا فشعرى كان طويلا حقا قال لى برنة إستنكار الى حد ما " لك مظهر فنان ! "

أنطوان إبنى صبى جاد مستقبله يشبه دليل المسافر وإمكانياته ملموسة تماما لدرجة أن صاحب البنك بعد تعيينه نائبا للمدير قرر أن يزوجه من إبنته إنى اتساءل عما فعلته لكى ينجح مثل هذا الابن ؟ فبينما أطوى اليام بقدم على الارض وذهن شارد يتقدم أنطوان دون جراح بخطوات محسوبه

عندما كان صبيا كنت أمثل شيئا بالنسبة لنطوان كانت قامتى تفرض نفسها عليه بلا شك وكان ينقل حركاتى كان يتسلق ذراعى ويدعونى " جبله " وبرغم أنه لم يصل أبدا الى طولى أصبح على الان أن استدعى له صورة قصير الساقين الدقيقة عندما أتكلم لايستمع الى ابدا وعندما يتكلم انصت اليه فهن يرى أن الافق يلمس والاحاسيس توزن وما الحياة بالنسبة له سوى لعبة لا تستقيم بفيها الحسابات أما أنا فكلما عرفت اكثر كلما إزددت جهلا وكلما نظرت الى الحياة قلما رأيتها أمنه كان سيدمر أمنى لو كان عندى أمن !

أنطوان على حق فالشعر المسدل على القفا يعطى شكلا غريبا قررت على الفور قصه كان على إبنى أن يقدمنى في اليوم التالى الى اسرة زوجته – وكان مترددا في الاقدام على ذلك حتى الان ولم أكن ارغب في مضايقته بأى طريقة سأدخل إذن أول صالون حلاقة يقابلنى

في الداخل أربعة حلاقين ولا زبون واحد حيا صاحب المحل مقدمى بصوت جهورى بهدف إنتباه الثلاثة الاخرين وتحريك ركودهم

وفي لحظة احسست أنى وضعت وضعا على المقعد الدائرى وقد غطى كتفى بقوطة بيصاء والتفت حول عنقى فوطة أخرى تدلت حتى صدرى وعلى الفور أخذ المقص يقعقع

ترغب بالتأكيد في حلاقة جيدة

هكذا قال صاحب المحل وهو رجل بدين دمث ذو شارب شمعى

أثنى بعد ذلك على جودة نوعيه شعرى بقوله :

كثير من الشباب يحسدونك عليه

فكرت على الفور بأسف بالغ في صلع أنطوان المبكر

ستشرب قهوه بالطبع

قالها بعد فترة في الوقت الذى عاد فيه أحد معاونية حاملا فنجانين ساخنين على صينية من الصفيح

شربنا القهوه ونحن نتبادل اطراف الحديث كان كما بدا يسافر كثيرا فسألته عددا من الاسئلة أجاب عليها بسعادة غامرة لكن عندما التقط مقصه من جديد فهمت أنه كان في حاجة الى الصمت وهكذا نسيت رأسى بين يدى هذا الرجل البشوش وغرقت في كوم الجرائد التى وضعت بحذر على ركبتى .

إنتهت الجلسة وأنا لازلت متأثرا بما قرأت – طفل عاملته زوجة أباه بشراسة وحبسته على مدى أسبوع كامل في غرفة مظلمة – نسيتالنظرة التقليدية الى المرآة وسألت :

كم تطلب ؟

ما تريد

فالاسعار في بلادنا تختلف تبعا للذوق والفرصة والتوقيت ولما كانت لى طبيعة خجلة جردت نفسى بطريقة سيئة من هذه الحرية الجليلة

ولكن ...

فأردف الرجل بقوله مضاعفا إرتباكى :

لايمكن أن يحدث ذلك بيننا

وضح إرتباكى اكثر عندما أشفق على محدثى وهو يسوق رقما بدا لى غاية في التواضع وماكنت أجرؤ حينئذ على الاصرار فقد تأثرت تماما وأنا اكتشف أننى كنت الزبون الوحيد في ذلك الصباح وعندئذ رجوته إضافة ثمن القهوة الى الحساب لكنه غضب هذه المرة :

إنك تهيننى تدخل عندى لأول مرة ونتحادث كما لو كنا صديقين أبديين ومع هذا تحاسبنى على ثمن قهوتى

شكرته وكلى خجل ثم صافحته بحرارة وأنا أعده بالعودة مرة أخرى

قال الرجل وهو يصحبنى حتى العتبه

أنت هنا في بيتك

البنك الذى يعمل به إبنى كان يوجد على بعد أبواب من الحلاق وكانت صدفه طيبة تلك التى سممحجت لى بملاقاة أنطوان وهو خارج

ما أن لمحنى حتى أطلق صيحة :

أى رأسى صنعوه لك ! ياعجوزى المسكين شىء مفزع إنك تبدو على هيئة

فهمت من منظرة أن مسأله غذائى مع أسرته لم تعد قائمة وأن أنطوان أصبح مشغولا في البحث عن سبب معقول لتخلفى وعلى هذا إبتعد بسرعة وهو يستدير مرة أو مرتين حتى يتأكد من أننى لا أتبعه

أحسست بفخذى ثقيلتين وتمنيت لو تركتانى أسقط في إنتظار صبى – يشبه أنطوان في طفولته – يضع يده في يدى ويساعدنى على الوقوف

شخص ما كان ينادينى

خذ نسيت هذه

كان هو الحلاق الذى سعد تماما بالعثور على يناولنى حقيبتى أما الضربة الودية الخفية التى ربت بها على كتفى بعد ذلك فقد أعادت الى حركتى

قلت له

أنا وحدى هلا أردت أن نتناول معا طعام الغذاء ؟

وحددت له المقهى – المطعم في مواجهتنا حيث الموائد تفيض على الرصيف فوافق قائلا

الوقت الذى يستغرقه إغلاق المحل وأجىء

عبرت المطلع كنت أشعر بحرارة الجو فالشمس المزروعة فوق المدينة كانت تتخذ شكل جمجمتى التى لم تعد تدافع عن كتله شعرى

ومن حيث كنت أجلس كنت أطل على البنك وأيضا على محل صديقى الجديد

كنت وأنا أنتظرة أحمل نظرى لعدة مرات من البنك الى المحل والزورق يرتفع بهدوء بالغ .